رأي القدس

تجويع الفلسطينيين لن يؤدي الى تركيعهم

■ يواجه الشعب الفلسطيني هذه الايام حرباً تجويعية شاملة، تهدف الى تركيعه، واجباره على التراجع عن خياراته الديمقراطية، والعودة الى زمن الفساد والتنازل والتفريط بثوابته الوطنية.

الادارة الامريكية اعلنت رسمياً قبل يومين وقف جميع مساعداتها المالية عن السلطة الفلسطينية، وفعلت دول الاتحاد الاوروبي الشيء نفسه، وقررت الحكومة الاسرائيلية قطع كل اتصالاتها مع السلطة، وعدم التمييز بين الرئيس محمود عباس او حكومة «حماس».

والى جانب المقاطعة هذه، واستخدام سلاح وقف المساعدات المالية، تشن القوات الاسرائيلية غارات يومية بطائرات الاباتشي وغيرها، على قطاع غزة والضفة الغربية، ولا تفرق بين امرأة وطفل وناشط، فالجميع مستهدفون دون اي رحمة.

العالم الغربي انتقل من موقف المتفرج على الجرائم الاسرائيلية في حق الشعب الفلسطيني، الى موقف المشارك والمؤيد لمثل هذه الجرائم، ودون اي تحفظ، فالحكومات الاوروبية التي ميزت نفسها دائماً، ووجهت انتقادات حادة للاستخدام الاسرائيلي المفرط للقوة ضد شعب اعزل، بدأت تتماهى مع الموقفين الاسرائيلي والامريكي، وتشارك في خنق الشعب الفلسطيني وتجويعه.

فالمقاطعة الامريكية والاوروبية لم تعد مقتصرة على مسؤولي حركة «حماس»، وانما امتدت الى السفارات الفلسطينية في الخارج، فقد صرح السيد ابراهيم خريشة مساعد وزير الخارجية الفلسطيني امس ان حكومات اوروبية مثل ايطاليا وهولندا وغيرهما استدعت سفراء فلسطين وابلغتهم ان بعض المساعدات المالية التي كانت تقدم لتغطية بعض نفقات سفاراتهم قد توقفت، وطلبوا من السفراء توضيحاً رسمياً عما اذا كانوا يتبعون وزير الخارجية الجديد محمود الزهار او رئيس السلطة محمود عباس.

وترجمة هذه الاستدعاءات عملياً هي محاولة شق الشعب الفلسطيني، وخلق انقسامات بين رئاسة السلطة ورئاسة الوزراء، واحداث بلبلة سياسية ودبلوماسية.

هذه المواقف ربما تبدو مفهومة لو ان دولاً ديكتاتورية تتخذها، ولكنها تبدو غريبة عندما تصدر عن حكومات منتخبة ديمقراطياً، وتدعي انها تتبنى نشر الاصلاحات الديمقراطية في الوطن العربي.

وتخطىء الدول الغربية، اوروبية كانت ام امريكية، اذا اعتقدت ان وقف المساعدات عن الشعب الفلسطيني سيؤدي الى انفضاضه من حول «حماس»، او ان حركة «حماس» سترضخ لشروطها في الاعتراف بالدولة العبرية ونبذ العنف، بل ربما يؤدي الى نتائج عكسية تماماً. فالشعب الفلسطيني، مثله مثل معظم الشعوب العربية شعب يتمتع بدرجة عالية من الكرامة وعزة النفس، ويرفض الخضوع للابتزاز.

واللافت ان كل هذه الضغوط المتعددة الجوانب لتجويع الشعب الفلسطيني واذلاله، لا تطرح اي بديل آخر عليه، اي ان اوروبا وامريكا لا تقدمان له اي حلول في المقابل غير الرضوخ للاملاءات الاسرائيلية دون شروط.

امريكا واوروبا لا تمارسان اي ضغط على اسرائيل، ولا تطالبانها بوقف الاستيطان وبناء الجدار العنصري، ووقف قتل الفلسطينيين، واغلاق المعابر في وجوههم. فقط الضغوط تمارس على الشعب الفلسطيني الضعيف، وكأنه هو الذي يحتل الارض الاسرائيلية، ويملك رؤوساً نووية، ويحتل المرتبة الخامسة كأكبر مصدر للاسلحة في العالم.

الغرب يمارس التجويع في حق الشعب الفلسطيني ويدعي في الوقت نفسه انه يؤيد الاعتدال ويحارب الارهاب، الامر الذي يكشف عن جهل مطبق بالمنطقة، واستسلام كامل لوجهة نظر الحكومة الاسرائيلية وتأييد لممارساتها، وهي الممارسات التي تقف خلف انتشار الارهاب وتصاعده واتساع نطاق دوائره.

سفينة المشروع النهضوي إلى أين.. تسييس الدين أو تديين السياسة؟

مطاع صفدي *

■ هل هي ظاهرة العودة إلى الدين، أم أنها هي السياسة التي تتسلم التدين كإيديولوجيا جديدة بديلة عن المذاهب السياسية العلمانية التي تهرأت منطلقاتها النظرية تحت وطأة الممارسات الفاسدة للأنظمة الحاكمة باسمها. فالسياسة لا تزول ما دام هناك اجتماع إنساني يحتاج الى انتظام أموره وحماية أمنه المعيشي والمدني. وهي دائماً مستعدة لاستخدام العقائد والأفكار الشمولية كيما تحقق أهدافها. والدين هو إحدى هذه العقائد، وربما أهمها لأنه لا يكتفي بطرح المصائر العامة ومخارجها التاريخية فحسب، بل يبحث عن طرق الخلاص الذاتي للأفراد. وحين يشتد يأس الناس من بلوغ أبسط أهدافهم اليومية بوسائل الإيديولوجيات المطروحة، يغدو التعلق بالقوى العلوية المفارقة هو السبيل الأخير للخلاص العام والخاص.

مجتمعاتنا العربية الثائرة في مجملها على أنظمتها السياسية البالية الفاسدة لا تتراجع حقاً عن الالتزام بأهدافها التاريخية، لكنها باحثة عن الأجهزة الفكرية والعملية البديلة عن كامل (عدة) الشغل المألوفة التي تهرأت وتداعت تحت طائلة الهزائم الحضارية التي منيت بها تجاربها الوطنية والقومية الخائبة.

فالمسألة ليست تسييس الدين، أو تديين السياسة. ولكن جعل كل منهما في خدمة الآخر. بما معناه أن الصالح العام هو المحطة الأخيرة التي يتوق كل من السياسة والدين إيصال جماعته إلى جنته الموعودة، مع فارق الاختلاف حول الطرق المؤدية إلى الهدف الواحد عينه. ذلك هو التسويغ (المنطقي) الذي يتحاشى وضع القطبين في موقف التناقض الحدي بينهما، كما أنه يتحاشى ما أمكن إضفاء صيغ التكامل المصطنع بينهما. وفي التجربة العربية الراهنة حيثما يتردد الاعتقاد أن التدين قد حل مكان السياسة وألغى دورها إذ استولى على جماهيرها المتحركة بالجملة، وأزاح عن كاهل هذه الجماهير قياداتها التقليدية، سواء منها المتوارثة عشائرياً أو الطارئة انقلابياً. نقول إنه في التجربة العربية الراهنة لا يمكن التسليم بشائعة الدين بديل السياسة، فليس هناك صراع إلغاء متبادل بينهما. إذ ان انتشار التحشيدات الاسلاموية إنما يأتي امتداداً لظاهرة التحشيد العقائدي المسيطرة بصفة عامة على تاريخ الحياة السياسية منذ مطلع الاستقلالات الوطنية. فالجماهير هي عينها التي شكلت قواعد الأولى وراحت تشكل القواعد الاسلاموية المستجدة والمتكاثرة. وهي التي قد تصير يائسة من الأولى، ومتأملة في قوة الثانية وسلامة ممارستها ونجوع شعاراتها. إنها بالأحرى طامحة في (ثورة أخلاقية) على مبتذلات الأولى ومصارع القيم التي كادت أن تختص بها فقط. أي أن الدعوات الدينية قد اختارت مداخل الأخلاق إلى حركاتها، وأعادت تربية الفرد سلوكياً أكثر من تلقينه أيديولوجياً. ذلك أن انهيار الحقبة الأيديولوجية كان أخلاقياً في المقام الأول. فقبل الفساد السلطوي تفشى الفساد الأخلاقي في رموزه وقياداته.

هنا يبرز التشبث بثقافة الفضائل الدينية كإعادة اعتبار لتربية الفرد كأساس داعم لنصاعة النضال الجماعي والارتفاع به إلى مستوى الجهادية المرادفة للتضحية بالذات دونما قيد أو شرط. وهذا ما يُعبّر عنه بإعادة السياسة إلى حضن الأخلاق، بحيث يلعب ضمير الفرد مجدداً دور الرقيب الأول على سلوك صاحبه. فلا شك أن مصادرة أنظمة الاستبداد لشعارات على الأيديولوجيات القومية والتقدمية واتخاذها متاريس دفاع لفظوية خلال تحولها الى سلطات إقطاع فئوي، قد دفع بغالبية النخب الثقافية إلى التخلي عن قيادتها للشارع تجنباً للقمع السلطوي من جهة، والتحاق بعضها بمراكز النفوذ الحاكمة من جهة أخرى. فتمت بذلك أكبر عمليات تجريد الجماهير من وظيفتها الطبيعية في ممارسة رقابتها لتصرفات الحاكمين والتعبير عن حق المعارضة السلمية. وخضعت المجتمعات العربية إجمالاً خلال عقود متوالية، إلى أسوأ حملات القمع الجماعي المنظم، وبما هو أشد إظلاماً وجبروتاً مما عرفته خلال حقبة الاستعمار الأجنبي. فحدث ذلك الفراغ الكبير من الحركات السياسية العادية والتلقائية من واقع الحياة العامة. ومع ابتذال الشعارات الوطنية والقومية وإفراغها كذلك من أبسط شروط الصدق والالتزام من قبل القوى المسيطرة، فقد طغت عليها كل نقائض الشعارات المرفوعة في نوع من الاستهتار واحتقار كرامة الدولة والوطن والشعب في علنية صارخة لم تعد تبالي بأية محاسبة أو اعتراض من أية جهة كانت.

إن تحريم السياسة قد عوضت عنه سلطة الاستبداد بإطلاق الجمعيات ذات الطابع الديني، حتى كادت تغطي تقريباً سطح الحياة الاجتماعية. كأنما كانت السلطة تطبق الفكرة الماركسية القائلة بأن الدين هو أفيون الشعوب. فاعتقدت في المراحل الأولى أن إشغال الناس بشؤون العبادات قد يصرفهم عن مراقبة الحكم وتأليف الأحزاب السرية المعارضة. لكن التدين لن يظل تعويضاً عن السياسة وبديلاً لها. سرعان ما ينقلب هو كذلك إلى سياسة أخرى. وسوف تأتي بمحصول فكري وعقائدي مختلف، وتنظم شؤونها بأساليب تحشيد وتوجيه وإعداد لم تألفها التنظيمات المدنية السائدة قبلها. لكن الدين عندما يغدو هو السياسة فإنه سوف يعاني من كل أمراضها أكثر مما يفيد من مزاياها. سيصير إلى انقسامات وتقاطعه تيارات متباينة تزايد على بعضها، وتكون عرضة لشتى ضروب الاستثمار والتوظيف الخارجي والداخلي، فالغرب راهن دائماً على الزعامات الدينية التقليدية في كبح حركات التحرر، وتثبيت أصول التخلف الحضاري. ودعم الأنظمة العشائرية المتحالفة تقليدياً مع المؤسسة الدينية. وكذلك استندت طبقات الإقطاع القديم والمستحدث إلى هذه التحالفات واستثمرتها كمتراس ضد تصاعد النزعات القومية والتقدمية التي حاولت أن تعطي الى الاستقلالات الوطنية مضموناً نهضوياً شاملاً، وذلك قبل أن تقع هذه المرحلة كلياً في قبضة الانقلابات العسكرية، التي بدورها ما لبثت أن استنفدت حيوية التحرر كسياسة نهضوية شاملة، تحقق حداثة عصرية في الفكر الاجتماعي، وترقى بشعوبها الى مصاف الأمم الحرة والمبدعة التي تستحقها وتؤهلها لها امكانياتها البشرية والمادية الهائلة.

ما كان يسمى بتوأم الرجعية والاستعمار شكّل حقيقة جوهرية تختصر مجمل عاقات الأمة ذاتياً وخارجياً. وكان السلاح الأهم في يد هذا التوأم هو إعادة إنتاج مؤسسة التخلف والانحطاط، ومدّ سلطانها إلى مختلف المجالات المتحركة، الواعدة بالتغيير الحر. وتحقيق تنميات متوازنة متكاملة على الصعيدين الوطني والقومي معاً، سياسياً واقتصادياً وثقافياً وعسكرياً. كان ذلك هو العنوان الجامع الشامل لمختلف حركات الشبيبة الصاعدة في أوسع مساحة جغرافية وسياسية برزت معالمها المضيئة عقب جلاء الجيوش الأوروبية عن مناحي الوطن العربي المحتل. ولم يكن الدين غريباً أو نائياً عن هذ الدفق النهضوي المحرك لجماهير الأمة وطلائعها المتنورة عامة. ولم ينفصل بعض الدين وأدعيائه إلا بعد أن جرى اتهام التقدم العربي إجمالاً بالشيوعية، عندما كادت موجة التقدم تطيح ببقايا الأنظمة العشائرية، وتفتح الطريق هكذا واسعاً أمام قيام وحدة اجتماعية نهضوية مبشرة بلمّ شعث الخارطة العربية المجزأة. فالسياسة حتى ذلك الحين والمفترق التاريخي كانت هي أجندة التكامل بين الوحدة القومية ومحتواها من مشروع النهضة المؤصلة بالحداثة في بُعدها العمقي الذاتي حسب شخصية مفهومية جديدة لن يكون التراث بعيداً عن أصولها الثقافية، ولن يكون الدين مبعث تمييز تكفيري إيماني ما بين مكونات مجتمعاتها المتحررة العازمة على الخروج النهائي من عصر انحطاطها المتمادي من عمق الماضي إلى راهنية الحاضر، والمهدّد دائماً لآمال المستقبل المختلف المنشود.

لكن (الانحطاط) كان أفعل من قوى نهضة ناشئة. لقد كان يمتلك وسائل مجربة باختطاف فرص التغيير، وقابلة للاستخدام الذكي والمبرمج من قبل كل عدو أهلي أو أجنبي، تخيفه ملامح الاستقلال الحقيقي لشعوب العرب والاسلام. إذ إن استقلالها هذا هو طريق وحدتها الحتمية. وذلك هو أخطر ممنوع دولي في أجندة كل قوة دولية طامحة للهيمنة على العالم، ومن مدخل هذه القارة العربية الاسلامية دائماً.

واليوم، واللعبة العقائدية في أوج سلطانها (الشعبوي)، وعلى محاور التطويف والتمذهب والعنصرة، فقد أمست هي سياسة الأمر الواقع. وهي التي تقدم أسلحة متعارضة إلى أيد متقاتلة. أما إذا سألت عن (الدين) أين هو من كل هذه التسميات والشعارات التي تنطق باسمه، فهو الغريب الحقيقي في كل ملّة ونحلة تدعي أنها هي أهله والناطقة الوحيدة بلسانه. في حين أن الانحطاط ومستغلّيه، من غرباء وأقارب، هو المحصلة الأخيرة للعبة العقائدية المفتعلة والتي تكاد تصير وحدها واسطة التحشيد والتشرذم. فهي في العراق أحدث آلة لتفكيك أواصر جسده ومجتمعه ودولته. وهي في لبنان الحارسة الأمنية على استمرارية دولة الطوائف في مختلف عهود الجلاء والاستقلال العابر ثم في حقبة الوصاية ابتداء من نفوذ الجار إلى (الانتداب) المزدوج الأمريكي الفرنسي.

لكن الدين كسياسة للأمر الواقع الجماهيري الذي انتهت إليه الأحوال العامة لأكثر المجتمعات العربية، لا يمكن اختصاره بأعراض الأمراض الفئوية الملصقة به. فهو في الآن عينه أصبح يمثل الأقطاب الأقوى أو المحورية في كل معارضة متصدية لأنظمة الاستبداد وإقطاعاته السلطوية المطلقة والاقتصادية الفاسدة. إذا لم يكن بنداً رئيسياً في أجندة النهضة، فقد يشكل في سياقها مؤونة لحركة تصحيحية تعيد إنتاج أخلاقيتها المفقودة أو المتعثرة، وتردّ لها جماهيرها النائية عنها، وتقربها ربما من أهدافها الصعبة.

* مفكر عربي مقيم في باريس

هل يتجه العراق نحو حرب أهلية.. أم انه يعيشها فعلا؟

د. ايمن الهاشمي *

■ يحاول الرئيس بوش وبقية أركان إدارته، ومعهم جوقة المستفيدين من الغزو الأمريكي ممن جاؤوا مع دباباته وحكموا العراق بفضلها وحمايتها ومازالوا، يحاولون تصوير العراق وكأنه بات جنة الله في أرضه، وبالتالي يصرون على نفي وجود أية علامات (حرب أهلية) في العراق، وهذا مايصرح به مسؤولو عراق اليوم في إنكار وجود حرب أهلية. الرئيس بوش في خطابه الأخير ببيت الحرية في واشنطن 2006/3/30، أكد أن العراق يسير بخطوات جيدة نحو إقرار الأمن والديمقراطية. وبعين الوقت لم يخف بوش إمتعاضه من تنامي سيطرة الميليشيات الطائفية على الجيش والشرطة بالعراق وإرتكابها أعمال الخطف والتعذيب خارج القانون وقال : «لن نقبل بإستمرار نفوذ الميليشيات». من جانبها، أقرت غوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية يوم 2006/3/31 في كلمة ألقتها في بلاكبرن ببريطانيا بإرتكاب (العديد من الأخطاء التكتيكية في العراق)، أما وزير الدفاع رامسفيلد ففي الوقت الذي يعزز من تأكيدات رئيسه أن الحرب الأهلية لم تقع بعد... لكنه يعود ويقرر بأن الحرب الأهلية لو وقعت في العراق فإن الجيش الأمريكي لن يتدخل فيها!!.

وعلى الطرف الآخر فهناك أكثر من طرف عراقي وغير عراقي إضافة إلى حقائق ووقائع الميدان ومايجري على أرض الرافدين اليوم، كلها تؤكد أن هناك بوادر للحرب الأهلية.. إن لم تكن الحرب الطائفية قد ابتدأت فعلا، فالدكتور أياد علاوي رئيس وزراء العراق السابق، أكد «أن الحرب الأهلية واقعة الآن في العراق وإن العراق قد إنتقل فعلا إلى مرحلة الحرب الأهلية، وما يشهده من أعمال عنف وقتل لا يمكن أن يندرج تحت أي توصيف آخر، سوى توصيف الحرب الأهلية». ويتساءل د.علاوي «إن لم تكن حربا أهلية فما يمكن أن نسمي مايحصل اليوم»؟ وهو يحذر من عواقب زج الميليشيات الطائفية في الجيش والشرطة على مستقبل العراق. ويشير عدد من قادة القوى السنية بأن ما يحصل اليوم في العراق يعني بدء الحرب الأهلية... من تداعيات متمثلة في التصفيات الدموية اليومية، وقتل الآلاف من العراقيين شهرياً، بحيث زاد عدد جثث القتلى من المدنيين العراقيين الذين تتسلمهم مشرحة الطب العدلي في بغداد كل يوم على المئة جثة بعد أن كانت تتلقى معدل لايزيد عن خمس جثث يوميا في حوادث (موت مشتبه به) قبل غزو العراق، مئة جثة لأشخاص قتلوا غيلة بالرصاص أو بالشنق والتعذيب، وعلى أيدي عصابات منظمة لها إمتدادات وحماية (رسمية)!... فيما عبّر رئيس هيئة علماء المسلمين الشيخ حارث الضاري، عن الاعتقاد بان «الحرب الاهلية قائمة فعلا في العراق»، وقال: «إن الحرب قائمة ومنذ ستة اشهر تقريبا لكنها غير معلنة، وكنا نود الا تعلن وكنا ندفع بها نحن ومن معنا من عقلاء العراق وهم كثر والحمد لله»، واضاف: «لكن الإرادات الشريرة كثيرة أيضا وتريد ان تلعب لعبتها الخطيرة لتحقيق مصالح سياسية وفئوية عجزت في الحصول عليها امام المعارضة الشديدة للاحتلال وخططه»، وقال: «اننا نعاني اليوم من حكم المليشيات، والحكومة الحالية تمثل مكونا واحداً، وهذا المكون يمتلك مليشيات هي التي تتحكم من خلال منظورها الحزبي والفئوي، وهو ما يفسر تفاقم مسلسل الاغتيالات والمداهمات وشلالات الدم».

مئة جثة يوميا لقتلى عراقيين أبرياء ومعذبين بأبشع أنواع التعذيب... ماذا يمكن أن نسمي هذا غير حرب أهلية تقودها وتمارسها الميليشيات؟... عشرات المساجد دمرت حرقا وتهديما وتفجيرا وقتل أئمتها علنا أمام مسمع ومرأى قوات الحكومة التي لم تحرك ساكنا لحفظ الأمن إن لم تكن بعضها متورطة في الأعمال الدموية....لابل أن عشرات من حوادث القتل والدهم تلك قد تم تصويرها وتوثيقها فيديويا من قبل المهاجمين، وتباع اليوم علنا في أسواق العراق... مما يؤكد أن تلك الأعمال لم تكن رد فعل عفوي بل كانت معدا لها ومخططا لها بإتقان من قبل أطراف ممتدة داخل السلطة.

روبرت فيسك مراسل صحيفة الاندبندنت البريطانية كتب تقريرا وصف فيه الوضع الميداني في العراق بـ«ام الكوارث» وذلك لان الحكومة العراقية الانتقالية ومعها عشرات الالاف من قوات التحالف لا تسيطر بالفعل إلاّ على بضعة امتار في المنطقة الخضراء بالعاصمة في مواجهة نحو 40 الف مقاتل وان نسبة البطالة في بلاد الرافدين اضحت 80 % في حين كان العراق قبل الحرب يستوعب 5 ملايين من العمالة الوافدة.

كما أن الأنباء تشير إلى اكثر من ثلاثين ألف عراقي من الشيعة والسنة على حد سواء، أجبروا على النزوح من ديارهم بسبب أحداث العنف الطائفي التي اندلعت اثر تفجير سامراء، وهذه الأرقام ليست مجرد تخرصات أو تخمينات إعلامية، وانما هي بيانات أعلنت عنها المنظمة الدولية للهجرة التابعة للأمم المتحدة، فالتوتر الطائفي الذي زاد السياسيون من إحتقانه، وإشتد بشكل غير مسبوق بعد التفجير الآثم للمرقد العسكري، والذي اعتبر عملا مبررا باتقان بهدف دفع البلد نحو هاوية الحرب الأهلية التي ان اندلعت شرارتها لن يعود بالوسع التحكم في مداها، ويتحدث التقرير عن أن الكثير من هؤلاء المهجرين من مختلف محافظات العراق، يعيشون في مخيمات مؤقتة، وهو ما يذكّرنا بالصورة المرعبة التقليدية التي تنشأ عادة إثر الصدامات الطائفية أو العرقية في البلدان المختلفة، حيث يتفكك النسيج الوطني، السكاني والديمغرافي، وتتحول المجتمعات إلى كانتونات وبؤر طائفية أو مذهبية أو عرقية منغلقة على ذاتها، وهي صورة يمكن استعادتها من التاريخ القريب جداً لبنان الذي اكتوى بنيران الحرب الأهلية التي أحالته يوما إلى خراب ودمار يعشش الموت في كافة أرجائه وزواياه. إن الخطر لايكمن في مجرد هذه الأعداد، سواء منها تلك المعلنة أو غير المعلنة، لأنها تظل في نهاية المطاف نتيجة دوامة العنف الراهنة في البلاد، ولكن القلق ينشأ من مخاطر استمرار الاحتقان الطائفي الذي قد يدفع نحو تكريس الفتنة الطائفية الشاملة، مما يدفع الكثيرين للاحتماء بطوائفهم في المناطق التي تشكل فيها هذه الطوائف أكثرية، خصوصاً مع انتشار الميليشيات المحلية التي تنطق باسم الطوائف، وميل الكثير من الزعماء الجدد الذين أفرزتهم المرحلة الراهنة إلى تكريس نفوذهم عبر تعزيز الولاءات الطائفية والمذهبية.

إن تراجيديا الدم المُسال اليوم في العراق تؤكد بدء وقوع حرب أهلية حقيقية يقدر ضحاياها بنحو مئة قتيل يوميا يضافون الى قائمة الـ150 الف قتيل عراقي الاخرين الذين حصدت ارواحهم آلة الحرب الشريرة فضلا عن عمليات غير مسبوقة من التطهير العرقي جعلت ثلاجات الموتى لا تتسع لاستقبال قادمين جدد. وبهذا المعنى يقول أحد منظري الاحتلال الامريكي للعراق ديفيد فيليبس، العضو في مجلس العلاقات الخارجية ونائب مدير مركز العمل الوقائي التابع له: (إنها حرب أهلية بالفعل فالحرب الأهلية هي عبارة عن صراع يدور على أسس طائفية ويكون منظما ومنسقاً، وهناك عدة مستويات من الشدة في الصراع الأهلي، ولكن حين ننظر الى الارتفاع المضطرد في عدد الضحايا وتأثير ذلك على الحالة النفسية للعراقيين، فإنني أعتقد أن هذا الوضع يرتقي الى مستوى حرب أهلية).

ويبدو أن الامريكان ومن دفعهم لهذه الحرب الكارثية، غير مقتنعين بما يحصل اليوم على انه حرب اهلية بل يتوقعون صورة اكثر فتكا وتدميرا...فما هي الصورة التي يريدونها؟.. انها صورة الارض المحروقة من اجل ان يتقاتل العراقيون فيما بينهم بعيدا عن استهداف قوات الغزو... ويبدو أن سياسة الارض المحروقة التي تتبعها الجيوش الغازية عند إنسحابها من أرض العدو ستستخدمها الادارة الامريكية بعدما تقرر الانسحاب من العراق. فإندلاع حرب أهلية سيجعل أبناء العراق ولعقود قادمة يجترون ويلاتها وآثاراً وهو وقت كاف لإنتقال شرر فتنة الحرب إلى باقي دول المنطقة، خدمة للأهداف الصهيونية وأمن إسرائيل. وبالتالي فإن دول الجوار العراقي وعموم الدول العربية تتحمل وزر حماية العراق والمنطقة من خطر الحرب الأهلية وتبعاتها لاسمح الله.

إن القتل الحاصل اليوم من جانب الميليشيات الطائفية المتسترة بزي الشرطة والجيش، يقوم على الهوية والاسم.. فنقاط التفتيش التي يقيمها هؤلاء يتقصدون منها توجيه الاهانات لكل من يحمل اسماً معيناً.. ويقومون بشتم الصحابة والخلفاء أمامهُ.. أو يلعنون اسمهُ.. فإذا جادلهم في ذلك أو رفض الاهانة أو استنكرها... فإنه يكون عرضة للإعتقال حتما.. ولن يُعرف لهُ مصير إلا في مشرحة الطب العدلي أو في مصفى المياه الآسنة بالرستمية أو في الصحارى والقفار.. جثة هامدة.... والعشرات ممن اعتقلوا أو استشهدوا لم يكن ذنبهم سوى اسمهم سبباً في ذلك.

إن ماجرى ويجري اليوم في العراق من تطورات دموية بإتجاه اشعال حرب اهلية واسعة تهدد وحدة العراق سياسيا واجتماعيا وجغرافيا اذا ما استمرت الامور على ماهي عليه حاليا. فحرب المساجد إبتدأت في وقت مبكر من الإحتلال، من خلال الإعتداء السافر على مساجد أهل السنة من قبل الميليشيات المسلحة، أو أعمال التفجير الأهوج مشبوه الفاعلين والنوايا ومن يقفون وراءه في إستهداف مساجد الشيعة وذهاب الأبرياء ضحايا لحوادث تفجير لم يكشف ولم يعرف من قام بها وماهي دوافعه.. ولم تقبض السلطات الأمريكية ولا العراقية على فاعل واحد مما يجعل هذه الحوادث في إطار المؤامرة لزرع الفتنة الطائفية في العراق... ولكنها تفاقمت عقب حادث تفجير سامراء، وهو الحادث المثير للشبهات هو الآخر، وعلى يد مجهولين، حيث ولدّت هذه الحادثة الإجرامية أعمال عنف قام بها الغوغاء والمدفوعون من قبل القوى التي تريد إشعال نار الفتنة، وأودت بحياة المئات وأدت إلى إحراق مئات المساجد واتسعت لتطال ائمة المساجد ورغم الجهود التي بذلت لاحتواء الازمة فإن كثيراً من المراقبين يرون أنها نار لاتزال تحت الرماد قد تشتعل في أية لحظة دافعة العراق الى فوهة بركان مذهبي وطائفي وعرقي وأن آثارها لن تقف عن حدود العراق فقط بل ستطال المنطقة.

إن كثيرا من عقلاء العراق وحكمائه يبذلون اليوم جهودا متفانية من أجل حقن الدماء وإيقاف نزيف الدم.. لكن للأسف فإن جهودا أخرى على الضد تسعى إليها أطراف أخرى (رسمية وغير رسمية) مستفيدة من تأجيج نار فتنة الحرب الأهلية الطائفية تسعى لصب الزيت على النار لصالح أجندات إقليمية لاتريد الخير للعراق، ويبدو أن المشهد العراقي سيظل على فوهة بركان مشتعل لن ينطفئ أو يهدأ إلا إذا تم رحيل قوات الاحتلال.. وإلى أن تجتمع إرادة القوى السياسية الوطنية العراقية على هدف يوحدها ويصب مجراه في مصلحة العراق وسيادته ووحدته الوطنية.. وليس لنا إلا الدعاء أن يوفق الله حكماء العراق، في إطفاء نار الفتنة التي إن إشتعلت لاسمح الله.... فستأكل الأخضر واليابس.. حرب لارابح فيها غير أعداء الأمة.. حرب كل العراقيين فيها خاسرون..

قلوبنا وعقولنا على العراق... لعل الله يجنب أهله الأسوأ.. ويلهم قادة شأنه الحكمة وبُعد البصيرة. ودعواتنا أن تتكلل جهود المخلصين خيرا.. ويعم الوئام أرض دار السلام.

* كاتب أكاديمي من العراق

أين هو علي العبد الله؟

ميشيل كيلو

■ دأب علي العبد الله على المطالبة بإخلاء سبيل ابنه عمر، المعتقل لدى مخابرات القوى الجوية مع مجموعة من شبان سوريين بتهمة العمل على تأسيس «تجمع شباب سورية». كان الشاب قد استدعي طيلة نيف وعشرين يوما إلى حرستا، أحد مقرات مخابرات القوى الجوية، دون أن يتم توقيفه، ثم قرر المحققون سجنه، فزار الأب المكان طالبا مقابلة ولده، وحين رفض طلبه، ترك له بعض الحاجيات (ثياب، نقود... الخ)، دون أن يعتقله أحد أو حتى يرفض استقباله أحد.

ثم فجأة أتت دورية في العاشرة صباحا إلى بيته في قطنا لاعتقاله. سألت زوجته الدورية عن السبب، فقيل له إنه مطلوب لساعات قليلة وسيعود إلى منزله. وأخبر هو نفسه الزوجة أنه سيرجع بعد قليل، ربما بعد الظهر، لأنه لا يذكر أنه فعل أي شيء. صحيح أنه كان في القامشلي، بمناسبة الذكرى الثانية للمقتلة، التي تعرض لها المواطنون الأكراد في أيار من عام 2004، إلا أنه قصر حديثه على الوحدة الوطنية والحوار والمصالحة والعمل السلمي، وما يتفق مع خطاب «لجان إحياء المجتمع المدني»، التي هو عضو فيها. صحيح أيضا انه كان يوم 8 آذار مع ولده محمد في الاعتصام أمام قصر العدل القديم في دمشق، وكان أمام محكمة أمن الدولة قرب السبع بحرات، حيث أوقفه قاضي المحكمة الأستاذ فايز النوري حوالي نصف ساعة، بتهمة أن ابنه هتف بسقوط قانون الطوارىء!. إلا أن أحدا لم يصدق أن علي العبد وابنه اعتقلا بهذه التهمة: الهتاف بسقوط قانون الطوارىء، الذي كان قد قال هو نفسه للقاضي، الذي اتهمه بالهتاف ضد الدولة: ولدي لم يهتف ضد الدولة، بل ضد قانون الطوارىء، الذي يهتف ضده الشعب السوري بأسره. ومما يؤكد أن سبب اعتقاله هو دفاع السلطة عن قانون الطوارىء، الذي أعلن المسؤولون فيها مرارا وتكرارا أنه تم تجميدها، وأنها لن تطبق إلا على حالات قصوى تمس بأمن الوطن لا النظام، وقيل في مؤتمر البعث الأخير إنه سيعاد النظر فيها من خلال قراءة جديدة لها تمنع تطبيقها إلا في حالات خاصة. والحق أن أحدا منا لم يصدق أن هتاف محمد العبد الله يشكل خطرا على أمن الدولة يستوجب اعتقال والده، الذي لم يهتف، لكنه ناقش النوري، واعتقل بعد ظهر اليوم، الذي أخذوا فيه اباه. وكنا نظن أن الأب والابن سيعودان إلى بيتهما بعد ظهر اليوم ذاته أو في اليوم التالي، إلا أن هذا لم يحدث، وحدث ما كان من الصعب جدا تخيله: اختفاء علي العبد الله منذ صباح يوم اعتقاله في 23 من الشهر الماضي، فقد انقطعت أخباره ولم يعرف أحد، رغم الجهد المكثف، مكانه أو الجهة التي اعتقلته، وسمعنا كلاما مقلقا جدا حول إنكار أي فرع مخابرات علاقته بقضيته.

أين هو علي العبد الله؟ من المؤكد أن سيارة مخابرات أتت في دورية إلى منزله وأخذته تحت نظر وسمع أهله وجيرانه، ثم أخذت ولده محمد وابن أخيه، الذي كان يوزر بيت عمه، ثم ترك في أحد شوارع دمشق. ومن المؤكد أن أخباره انقطعت منذ قرابة نيف ونصف شهر، مع أن هذا لم يحدث حين اعتقل قبل نيف وعام بحجة قراءة رسالة من الأستاذ علي صدر الدين البيانوني في منتدى الأتاسي، واتهم بالانتساب إلى جماعة الإخوان المسلمين، فهل فعل هذه المرة شيئا يفوق في خطورته تهمة كهذه، عقوبتها في القانون 49 الموت؟

ماذا فعل علي العبد الله كي يعتقل ثلاثة من أفراد أسرته، التي لم يبق منها خارج السجن غير زوجته وابنته؟ وما الرسالة التي يراد إيصالها عبر اختفائه؟ ولأنه ليس هناك مسوغات تبرر ما حصل له ولولديه، فلا يبقى غير تخمين الأسباب، وهي في اعتقادي بعث رسالة إلى المعارضة من مختلف الأطياف، تعلمها أن النظام سيتصرف من الآن فصاعدا بصفته نظاما أمنيا صرفا، وأنه لن يقبل اليوم ما كان يقبل بالأمس، وسيذهب إلى أبعد حد يمكن - أو لا يمكن - تصوره، بما في ذلك الاعتقال الجماعي والإخفاء القسري وربما تصفية من يعارضونه، لأنه يشعر أن ظهره إلى الحائط، وأن هناك من يهدده جديا، بعد انشقاق الأستاذ عبد الحليم خدام والضربات التي سددها له وآخرها تشكيل جبهة الخلاص الوطني يوم 17 آذار الماضي في بروكسل، وما أثاره تسارع نشاط المسؤول الرفيع السابق من قلق في صفوفه.

لا يهم، عند وجود رغبة في إيصال رسالة كهذه، أن يكون علي العبد الله وولداه قد فعلوا أو لم يفعلوا ما يوجب اعتقالهم. إنهم أداة وحسب، من هنا خوفنا عليهم وقلقنا على مصيرهم ومطالبتنا بإخلاء سبيلهم. ومن هنا أيضا إعلاننا أننا فهمنا الرسالة، وأنه لا حاجة بعد للاستمرار في اعتقال وإخفاء صديقنا وزميلنا، لا سيما وأنه ليس هناك من هدف آخر يبرر اعتقاله وإخفاءه.

الحرية لعلي العبد الله، ولولديه محمد وعمر. يسقط قانون الطوارىء. لا للحكم الأمني في زمن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والمواطن!

القدس العربي

يومية سياسية مستقلة

تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم

الاشتراكات:

الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر: مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير: عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو

هاتف: 8008 741 0208 (6 خطوط)

فاكس: 8902 741 0208 أو 7637 748 0208

مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)

مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)

مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.

هاتف: 5337920 فاكس: 5337928 (9626)

مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Al-Quds Al-Arabi

daily Independent News Paper

Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD

Circulated in Europe, Middle East, North Africa